العقيدة

جاء في مادة «الله»[١] أنه ليس أكيداً أن الجاهليين كانت عندهم فكرة عن «الملائكة» أو أنهم كانوا يعبدونهم شركاء لله[٢]. ولا ندري لم هذا التشكيك وفي القرآن الكريم أنهم طلبوا من الرسول أن تنزل معه الملائكة تعضّد دعواه؟ قال تعالى على لسان الكفار: ﴿ **وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾** ﴾[٣]، ﴿ **لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ** ﴾[٤]، ﴿ **لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ﴿٧﴾** ﴾[٥]... إلخ. كما جاء فيه أنهم جعلوا الملائكة إناثًا وزعموا أنهم بنات الله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾** ﴾[٦]، ﴿ **وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا** ﴾[٧]، ﴿ **أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا** ﴾[٨]، وغير ذلك. إن الكاتب يزعم أن هذا قد يكون هو فهم محمد للأمر. والحقيقة أن هذا مجرد ادعاءٍ لا أساس له، إذ لا يُعقل (بافتراض أن القرآن هو من عند الرسول صلى الله عليه وسلم) أنه كان يجهل عقائد قومه، الذين عاشرهم أربعين عامًا قبل نبوته[٩]. بل إن القرآن قد استخدم تشبيهًا المشبَّهُ فيه «ملك كريم»، وذلك في قوله تعالى على

(١) كاتبها هو المستشرق ماكدونالد، وقد سقطت كلها من ترجمة د. البراوي.

(٢) ٣٣/ ٢.

(٣) الحجر: ٦، ٧.

(٤) هود: ١٢.

(٥) الفرقان: ٧.

(٦) النجم: ٢٧.

(٧) الزخرف: ١٩.

(٨) الإسراء: ٤٠.

(٩) من التناقضات العجيبة في الموسوعة أننا نجد في مادة «محمد» اتهامًا له صلى الله =

لسان النسوة اللائي علكن سيرة امرأة العزيز يصفن به جمال يوسف: ﴿ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾(١٠)، ولا يُتَصَوَّر أن يستخدم القرآن تلك الصورة البيانية لو كان الجاهليون لا يفهمون مثل هذا التشبيه. ولو افترضنا جدلاً أن القرآن قد ادعى عليهم ما لم يكونوا يقولونه أو يعتقدونه أكانوا سيسكتون ولا يدفعون عن أنفسهم هذا الذي يُدَّعى عليهم؟ إن كاتب المادة يعتمد فيما يقوله عن عقائد الجاهليين في الله والجن على القرآن الكريم، فلماذا يرفض ما يقوله هذا القرآن نفسه عن عقائدهم في الملائكة؟ إن هذا تناقض منهجي غير مفهوم ولا مقبول(١١).

ومن الشعر الجاهلي الذي ورد فيه هذا اللفظ قول علقمة بن عبدة (أو رجل من عبد القيس) يمدح بعض الملوك:

ولستَ لإنسيٍّ ولكن لمَلأكٍ ... تنزَّل من جو السماء يَصُوبُ(١٢)

= عليه وسلم بأنه قبل البعثة كان كسائر قومه وثنيًا (٣٩١/٢)، وهنا اتهام له بأنه قد أساء فهم عقائد قومه. والمقصود في الحالتين الإساءة له عليه السلام كما هو بيّن واضح. وقد رددنا على الاتهام الأول في الفصل الخاص بالرسول عليه الصلاة و السلام، فيُرْجَع إليه. وبطبيعة الحال لا حاجة بالإنسان، لكي يفهم عقائد قومه وتقاليدهم وأوهامهم، أن يشاركهم تلك الاعتقادات أو يسايرهم في هذه الأوهام والتقاليد.

(١٠) يوسف: ٣١.

(١١) وقد أشار الشهرستاني إلى عبادة العرب للملائكة واعتقادهم أنهم بنات الله (الملل والنحل/ تحقيق محمد سيد كيلاني/ ٢/ ٣٨)، وتناول هذا الموضوع بشيء من التفصيل د. جواد علي (تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/ ٧٣٧ ـ ٧٣٩) و Hafiz Ghulam (Religious Trends in pre - Islamic Arabic Poetry, PP. 33 - 34) وذلك إلى جانب ما كتبه المفسرون في هذا الموضوع عند تناولهم للآيات التي تتحدث عن اعتقادات الجاهليين في هذا الجنس من المخلوقات.

(١٢) تاج العروس/ مادة «ألك» و «ملك»، وديوان علقمة بن عبدة/ ٨.

وقول أمية بن أبي الصلت:

فكـــأن بِرْقِعِ والملــــلائكُ حـولــــه سَدِرٌ تَوَاكَلَهُ القـوائـمُ أجْـرَدُ(١٣)

وقوله أيضًا:

ملائكة أقـدامهم تحـت عـرشـــه بكفيه لـولا الله كلّـوا وأبلـدوا

مـــلائكـــة لا يفتـــرون عبــــادةً كَرُوبِيَّةٌ منهم ركـوع وسجَّـدُ(١٤)

وقول الأعشى عن تسخير الجن لسليمان عليه السلام:

وسخَّر مـن جـن الملائـك سبعــة قيامًا لديه يعملـون بـلا أجـر(١٥)

وفي حديث كاتب المادة عن أسماء الله الحسنى نراه مثلاً يتوقف عند اسم «السلام» الذي ورد في الآية ٢٣ من سورة «الحشر» زاعمًا أن معناه غامض إلى حد كبير، ومؤكدًا في نفس الوقت أنه لا يعني « Peace » (رغم تكرر ترجمته له بهذه الكلمة على طول المقال)، ثم يورد ما قاله المفسرون من أن معناه السلامة عن النقص والعيب(١٦)، ويعقب أن هذا المعنى ليس مستحيلاً البتة. ويضيف قائلاً إن الرسول عليه السلام ربما التقط هذه الكلمة من إحدى صلوات النصارى وظلت عالقة بذاكرته(١٧).

وهذا كلام ينقض بعضه بعضًا كما ترى، إذ كيف يقول ذلك المستشرق إن معنى هذا الاسم الكريم غامض إلى حد كبير، وفي ذات الوقت يقبل شرح المفسرين له بأنه يعني السلامة من النقائص والعيوب؟ كذلك كيف يرفض أن يكون معناه بالإنجليزية «Peace» ثم لا يترجمه إلا بهذه الكلمة؟ أما دعواه أن الرسول قد يكون

(١٣) ديوان أمية بن أبي الصلت/ صنعة د. عبد الحفيظ السطلي/ ٣٥٨.

(١٤) السابق/ ٣٦٨، ٣٧٠.

(١٥) الصبح المنير في شعر أبي بصير/ ٢٤٣.

(١٦) أي أنه مصدرٌ استُعمل وصفًا، كقولنا: «فلان عَدْلٌ» مثلاً.

(١٧) ٣٤/ ٢.

التقطه من إحدى الصلوات المسيحية فهي تكشف عن العقلية الاستشراقية التي تنبذ منطق البحث العلمي حينما تكون بصدد الكلام عن الإسلام ورسوله وكتابه، وإلا فأين الدليل على أن الرسول قد أخذه من صلاة النصارى؟ وأين ومتى كان ذلك يا ترى؟ هل دخل الرسول عليه الصلاة والسلام في حياته كنيسة؟ إن الادعاء بهذا الشكل ليس من البحث العلمي في شيء. إن كل إنسان يستطيع بهذه الطريقة أن يقول أي كلام ويظن نفسه بذلك من زمرة العلماء والباحثين، ولكن هيهات!

وبالمناسبة، فالمعنى الذي نقله الكاتب للاسم الكريم عن المفسرين هو أحد المعاني التي شُرحت بها هذه الكلمة. وهناك من يقول إن المقصود أنه سبحانه قد «شمل جميع الخليقة وعمهم بالسلامة من الاختلال والتفاوت، إذ الكل جارٍ على نظام الحكمة. وكذلك سلم الثَّقَلان من جور وظلم أن يأتيهم من قبله سبحانه وتعالى، فهو في جميع أفعاله سلام لا حيف ولا ظلم ولا تفاوت ولا اختلال»(١٨).ومما فُسِّر به هذا الاسم أيضًا أنه «الذي يسلّم يوم القيامة على أوليائه فيسلمون من كل مخوف. قال تعالى: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ﴾ (١٩). وفُسّر أيضًا بأنه «المسلّم عباده من المهالك، فلا سلامة إلا وهي منه صادرة، سبحانه وتعالى ناشر السلام بين الأنام»(٢٠).

ورأيي أن الكلمة تعني ذلك كله وربما أكثر. وهذا من غناها وامتلائها بالمعاني. أما القول بأنها غامضة المعنى فهو سخف لا يُلْتَفَت إليه. ويؤكد هذا تناقض الكاتب في هذه النقطة كما رأينا.

أما بالنسبة لوصفه عز شأنه بـ «نور السماوات والأرض» (الوارد في الآية ٣٣

---

(١٨) الزبيدي/ تاج العروس/ مادة «سلم» / ٨/ ٣٣٩.

(١٩) حسنين محمد مخلوف/ أسماء الله الحسنى والآيات الكريمة الواردة فيها/ ٣٨. الأحزاب: ٤٤.

(٢٠) عبد المقصود محمد سالم/ في ملكوت الله مع أسماء الله / ٤٦ ـ ٤٧.

من سورة «النور») فإن الكاتب يقول إن السياق يشير فيما يبدو إلى العبادة داخل كنائس النصارى وصوامعهم. وعلى هذا تكون الصورة مأخوذة من مذبح الكنيسة في حالة إضاءته. وهو يضيف قائلاً إن هذه العبارة تذكّرنا بـ «نور العالم» الواردة في الإنجيل، و«نور النور» الموجودة في العقيدة النيقيّة. كما يدعي أن هذا الاسم هو أيضًا غامض المعنى لا يمكن معرفة ماذا كان يقصد به محمد عليه الصلاة والسلام(٢١).

وأنا أحتكم إلى القارئ وضميره وأسأله: هل فهم شيئًا من ربط الكاتب بين عبارة «نور السماوات والأرض» والمذبح المضاء؟ ألعله يريد أن يقول إن المذبح حين يضاء يذكر بالسماوات والأرض والنور المنتشر في آفاقها؟ ولكن كيف والمذبح جدٌّ ضيق ومعتم (حتى إن الضوء ليبرز عتمته ولا ينفيها)، إلى جانب الكآبة التي تخيم عليه والغموض الذي يخنق العقل من جراء الطقوس الوثنية التي تمارس فوقه، بطقوس الخمر التي يدّعون أنها تستحيل فتصبح دم المسيح، والخبز الذي يزعمون أنه يتحول فيصير لحمه، ثم يأكلون هذا ويشربون ذاك؟

أما عبارة «نور العالم» فقد وصف بها المسيح نفسه حسبما جاء في إنجيل يوحنا، إذ ورد فيه: «ثم كلمهم يسوع أيضًا قائلاً: أنا هو نور العالم. من يتبعني فلا يمشي في الظلمة بل يكون له نور الحياة»(٢٢)، وهذا غير ما جاء في القرآن من قوله تعالى عن ذاته العلية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ

(٢١) ٣٤/ ٢.

(٢٢) يوحنا/ ٨/ ١٢.

مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾[٢٣]. إن عبارة المسيح (إن صح أنه قائلها) مكونة من كلمتين ليس إلا، وهي صورة جد بسيطة، وليس فيها خصوصية تسوّغ الادعاء باستيحائها. أما الصورة القرآنية فهي صورة مركبة متشعبة وتحتوي على عناصر عدة، علاوة على أن الموصوف بـ «نور العالم» هو، كما قلت، المسيح، أما «نور السماوات والأرض» فهو الله سبحانه رب المسيح والكون كله.

ويرى القارئ كيف تجاهل المستشرق ماكدونالد هذا كله، وكيف لم يوضح أن المقصود بـ «نور العالم» في الإنجيل هو المسيح وليس الله عز شأنه، وكيف (إمعانًا منه في التعمية) لم يذكر أي الأناجيل توجد فيه هذه العبارة ولا موضعها منه!

أما بالنسبة لمعنى هذا الاسم المقدس فهو كسابقه في غناه وامتلائه. وإن دعوى المستشرق كاتب المادة بأنه غامض هي دعوى فارغة لا معنى لها، ولا يُقصد بها إلا العناد والرغبة في التشهير بالقرآن. وهي دليل على أنه يردد كلامًا غير قابل للفهم، وإلا فهل يجهل أحد معنى النور: نور البصر، ونور الفكر، ونور الوجدان الحي والضمير اليقظ، ونور الحق في مواجهة كُدُورة الباطل، وقبل ذلك كله نور الخَلْق في مقابل ظلمة العدم؟ فكل هذه الأنوار وغيرها مستمدة من الله سبحانه، الذي لولاه لكانت حياتنا ظلامًا في ظلام، بالضبط مثل الجمادات، التي لا ترى ولا تفهم ولا تشعر ولا تميز، بل لما كان لنا وجود أصلاً ولبقينا في عماء العدم[٢٤].

---

(٢٣) النور: ٣٥.

(٢٤) يمكن الرجوع في تفسير هذه الكلمة، إلى جانب كتب التفاسير، إلى «المقصد الأسمى في شرح معاني أسماء الله الحسنى» لأبي حامد الغزالي/ ١٤٦، و«في ملكوت الله مع أسماء الله» لعبد المقصود محمد سالم/ ١١٥، «وأسماء الله الحسنى» لحسنين محمد مخلوف/ ٨١.

وبالمثل يزعم ماكدونالد أن اسم «البارئ» قد أخذه الرسول من العبرية واستعمله دون أن يقصد به معنى مخصوصاً[٢٥]. وهذا زعم، كما ترى، لارأس له ولا ذنب، إذ كيف يأخذ الرسول عليه الصلاة والسلام شيئًا من العبرية وهو لا يعرفها؟[٢٦] بل كيف يأخذ منها شيئًا هو موجود في العربية؟ فـ «البارئ» هو اسم فاعل من «برأ» أي «خلق»، وهذا أمر معروف لم نكن نظن أن أحداً يجعله محل شك ومراء. ولكنهم المستشرقون!

ومن شذوذ مزاعم ماكدونالد كاتب المادة قوله إن وقوف الإنسان أمام الله عاريًا عاجزًا عن الدفاع عن نفسه غير واجد عذرًا لها هو من الأفكار التي كانت تسيطر على عقل الرسول سيطرة تامة[٢٧]. إن هذا هو الشذوذ بعينه، فإن الله في الإسلام كريم رحيم عفوّ غفور يجزي على الحسنة بأضعافها إلى سبعمائة ضعف وأكثر . كما تُعَدّ رحمة الأم وحنانها على ولدها لا شيء بالنسبة لرحمته. إن تلك الفكرة الغريبة التي يعرضها علينا المستشرق إنما هي من نتاج عقله وارث الثقافة الإغريقية التي كانت تتصور العلاقة بين الله والبشر عداء وحروبًا واستبدادًا

(٢٥) ٣٤/ ٢، و٣٥/ ١.

(٢٦) أبرز بوهل، في مادة «محمد»، عدم معرفة النبي عليه السلام بالعبرية مرتين: مرة في قوله إن اليهود في المدينة لم يشاءوا أن يردوا على اتهام القرآن لهم بتحريف كتبهم لأن محمداً لم يكن يعرف العبرية التي كُتبت بها هذه الكتب، فوجدوا أنه لا فائدة من محاولة إثبات براءتهم. والثانية حين أشار متهكمًا إلى أن هرقل لم يكن قادراً على أن يفهم القرآن مثلما كان الرسول عاجزًا عن فهم كتب اليهود، وذلك بسبب حاجز اللغة. والآن يقول ماكدونالد إن الرسول عليه السلام قد استعار كلمة «البارئ» من نفس هذه اللغة. والمقصود في الحالتين هو الإساءة له صلى الله عليه وسلم، أما التناقض بين كلام بوهل وكلام ماكدونالد فلا يهم المستشرقين في قليل ولا كثير.

(٢٧) ١/٣٥.

ومؤامرات من جانبه سبحانه، وعجزًا ورعبًا ويأسًا وفشلاً من جانبهم.

ويقول ماكدونالد أيضًا إنه لا حاجة في الإسلام إلى ملائكة أو وسطاء بين الله وعباده، ومع ذلك فقد وجدت فيه الملائكة. والسبب، كما يزعم، هو أن الرسول عليه الصلاة والسلام قد وجدها في الدين الأساسي في عصره، فأخذها وأدخلها في الإسلام(٢٨).

وماكدونالد هنا إما أنه يجهل أو يتجاهل معنى الوساطة المرفوضة في الإسلام. إنها الوساطة في العبادة: فالمسلم يعبد ربه دون حاجة إلى رجل دين لا تصح الصلاة إلا بقيادته وإشرافه. وهو يدعوه سبحانه ويبتهل إليه دون أن يتقرب إليه بصنم أو وثن أو وليّ. وحين يرتكب إثمًا أو يُلِمّ بذنب فإنه يتجه إليه عز وجل مباشرة تائبًا طالبًا الغفران فيغفر سبحانه له بلا حاجة إلى كاهن يقدم بنفسه ذبيحة الخطيّة أو مكفّرٍ ينزل من السماء ويموت على الصليب. فهذه هي الوساطة التي ينكرها الإسلام، أما أن تكون هناك مخلوقات تحمل الوحي وتنزل به من السماء إلى من اصطفاهم الله جل شأنه لحمل رسالاته، وتستغفر للمؤمنين، وتقبض الأرواح، وتكتب أعمال العباد... إلخ، فليست هذه هي الوساطة التي يرفضها الإسلام، وإلا فالرسل بدَوْرهم وسطاء بين الله وعباده، إذ الرسالة لا تنزل على الناس أجمعين. بل على أفراد منهم مخصوصين ويقوم هؤلاء بدورهم بتبليغها إليهم. والحياة كلها تقوم على الوساطة بهذا المعنى. وليس من يُشَاحّ في هذا، ولكن ذلك المستشرق يظن أنه يستطيع أن يطلق الغبار في الهواء ويغشّى على الأبصار، وفاته أن الغبار سرعان ما يتطاير بعيدًا وتعود الرؤية إلى الصفاء.

وهو يدعي أن تحليل الصفات الإلهية يثبت أنها تنطوي على «تناقضات

---

(٢٨) ٣٥/ ٢.

حادة»(٢٩). وهذا غير صحيح، إذ المسألة تتلخص في أن اللغة البشرية، التي هي نتاج العقل البشري المحدود والنسبي، تقتضي النظر إلى الذات الإلهية على هذا النحو، وإلا فكيف يستطيع ذلك العقل البشري أن يفكر في الذات الإلهية المطلقة؟ وكيف يشعر مثلاً بقربها منه، ورعايتها له، وقيامها على أمره، ومراقبتها لأفعاله، وإحسانها إليه إن أحسن ومعاقبتها له إن أساء ولجّ في عصيانه فلم يندم ويَتُبْ، إلا إذا عرف أنه سبحانه سميع بصير، ورحيم جبار، ونافع ضارّ... إلخ؟ ومع ذلك فليس في الإسلام ما في الأديان الأخرى من تلك التناقضات التي لا ترجع إلى طبيعة اللغة والعقل البشري بل إلى التحريف الذي اعتراها وتسللت بمقتضاه إليها العقائد الوثنية أو تأثيرات العصبيات القبلية والقومية الضيقة الأفق. إن الإسلام في هذا الجانب، كما في الجوانب الأخرى، لا يقاس به أي دين آخر في منطقيته ونقائه.

ويقول صاحب مادة «الجنة» إن محمداً يصف الجنة بعبارات مادية. كما أنه يعتبر الآية ١٥ من سورة «محمد» (وهي في وصف الجنة) مما نزل في أول الدعوة. ويمضي قائلاً إن محمداً أو معلمه قد استمد صور الجنة من الصور المنمنمة أو الفسيفسائية النصرانية بملائكتها التي ظنها شباناً وفتيات(٣٠).

وكلام المستشرق كاتب المقال عن وصف القرآن للجنة بعبارات مادية يُقْصَد به غمز الوحي الإلهي. وقد علق د. البراوي في الهامش مدافعاً (على قلة ما يفعل) بما جاء في «القاموس الإسلامي» لأحمد عطية الله (١/٦٤٤) من أن هناك إجماعاً بين المفسرين على أن لذائذ الجنة ليست مادية حسية كما تعبر عنها الطبيعة البشرية

---

(٢٩) ٣٧/ ١.

(٣٠) ٨٨/ ١. وبالمناسبة، فقد سقطت من ترجمة د. البراوي (١/ ٢٤٥/ ١) الفقرة الخاصة بدعوى الاستعارة من التصاوير النصرانية، وهي الفقرة الثالثة من تحت في النهر الأول من الصفحة الثامنة والثمانين في الأصل الإنجليزي.

وأنها من قبيل التشبيهات والاستعارات[٣١]. والذي أعرفه أن من بين علماء المسلمين من يأخذ الكلام عن نعيم الجنة على ظاهره، ومنهم من يؤوله. وقد ذكر ابن رشد الآراء المختلفة في ذلك[٣٢]. وأود أن أقول إن أوضاع الكون سوف يعتريها تغير كامل في الحياة الآخرة، وهذا واضح من نصوص القرآن والسنة. فالكلام إذن عن الجنة والنار هو كلام عن غيب مجهول له أوضاعه التي تختلف عن أوضاع الدنيا. ومع ذلك، فهب أن لذائذ الجنة هي لذائذ حسية مما نعرفه في دنيانا هذه، فأي عيب في ذلك؟ ترى من ذا الذي يكره الطعام الفخم الشهيّ، والمرأة الحسيبة العفيفة الجميلة، والقصورَ المتطاولةَ في السماء الواسعةَ الأجنحة والأبهاء، والظلال الوارفة والمياه الجارية؟ إن من العجيب المدهش أن يصدر هذا الإنكار عن المستشرقين، وهم غربيون، والغَرْب لا يؤمن إلا بالدنيا ومتعها هذه الحسية، ويخطف ويسرق ويختلس ثروات الأمم ليوفر لنفسه بها هذه اللذائذ والمتع. ومع ذلك فينبغي أن نعرف أن هذه اللذائذ الأخروية سوف تكون عارية عما يقترن بها هنا في الدنيا من بَشَمٍ أو كظّة أو مغصٍ أو فضلاتٍ أو قلق أو مللٍ أو مشاحنات. إنها لذائذ صافية. فمن يكره باللّه هذا الضرب من الملذات؟ كذلك فإن هناك ضرباً من المتع الروحية من سكينة نفسية ورضوان إلهي ورؤية للذات العلية في بهائها وجلالها وجمالها الأقدس. فالقرآن إذن في تصويره لطيبات الجنة إنما يخاطب أشواق النفس الإنسانية بمختلف صورها.

أما قول كاتب المادة إن الآية ١٥ من سورة «محمد» تنتمي إلى أوائل الدعوة فهو قول عار عن الصحة، فسورة «محمد» هي سورة مدنية بما فيها هذه الآية، لا

(٣١) ترجمة د. البراوي/ ١/ ٢٤٤/ ٢/ هـ ٢.

(٣٢) انظر ابن رشد/ الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملّة/ ضمن كتاب «فلسفة ابن رشد» / ١٢٢ ـ ١٢٣.

خلاف في ذلك(٣٣).

وإنه لسخف ما بعده سخف أن يزعم كارادي فو أن الرسول قد أخذ صور الجنة من التصاوير النصرانية، إذ ما العلاقة بين الملائكة كما يصورهم النصارى في رسومهم ذوي أجنحة منثورة في الهواء وبين أهل الجنة؟ ولقد نص القرآن صراحة في أول سورة «فاطر» على أن الملائكة أُلو أجنحة، وهو ما يبين أن الرسول، بفرض أنه مؤلف القرآن، لا يمكن أن يكون قد أخطأ فظن أن الملائكة في الرسوم النصرانية هم أصحاب الجنة حتى يخطر بالبال أنه قد أخطأ فظن أولئك هؤلاء. ثم هل في الملائكة، كما يصورهم النصارى، ذكور وإناث؟ وهل الجنة هي الرجال والنساء فقط؟ أليس فيها أنهار جارية، وحدائق غُلْب، ولحوم وشراب من كل نوع، وحليّ من ذهب وفضة، وملابس من سندس وإستبرق، وظلال وأرائك وزرابيّ مبثوثة؟ أم ترى التصاوير النصرانية كانت تشتمل على هذا أيضًا والملائكة متمددون فيها على الأرائك يتمتعون بالظل والماء والخضرة، ويأكلون اللحم ويشربون الخمر واللبن والماء العذب النمير، ويتسامرون مع زوجاتهم؟ ثم أين يا ترى رأى الرسول هذه الرسوم وهو لم يدخل كنيسة في حياته؟ ألا ترى أيها القارئ أن في كلام هؤلاء المستشرقين عندما يكتبون عن الإسلام سخفًا كثيرًا؟

ويمضي هوروڤيتز في مادة «الكوثر» على نفس الوتيرة من اتهام الرسول بأنه قد أخذ جنته من أهل الكتاب، قائلاً إن ما جاء في آية سورة «محمد» مطابق لما عند اليهود والنصارى من أوصاف أنهار الجنة، مع فارق وحيد هو أن الرسول عليه

(٣٣) وقد التزم كاتب مادة «كوثر»، وهو المستشرق هوروڤيتز، بالصواب فأشار إلى هذه الآية بوصفها من الوحي المدني (٢٣١/ ١). وقد كان ينبغي على كاتب مادة «الجنة» أن يلتزم بذلك أيضًا، لأن هذا الخلاف بين المادتين ليس بالتناقض الهين.

السلام قد جعل أحد هذه الأنهار من ماء بدلاً من الزيت كما هو عندهم(٣٤).

ولست أريد هنا أن أبحث عن مدى صحة هذا الادعاء أو أن أعرف مكان وجود هذه الأنهار في كتب اليهود والنصارى، ولكني أتساءل: أليس هذا وصفًا ماديًا حسيًا للجنة؟ فلماذا لم يَعِبْه المستشرقون؟ أم ترى العيب والتفنيد والإنكار هي من نصيب الإسلام فقط؟ إنه إذا صح كلام ذلك المستشرق عن هذه الأنهار في كتب القوم فإن تفسيره هو أن ذلك من بقية الوحي الذي نزل بشأن طيبات الجنة، لكنهم للأسف قد عبثوا به أيضًا مثلما عبثوا بأشياء كثيرة في كتبهم، فاستبدلوا الزيت بالماء، إذ باللّه من ذا الذي يفكر في شرب الزيت؟ إن الزيت ليس للشرب بل للطبخ ومعالجة بعض أنواع الأطعمة. وهو في أي من الحالتين ينبغي أن يستخدم بأقل قدر ممكن، بخلاف الماء، الذي يحتاجه البشر احتياجًا شديداً ويجدون لذة عظيمة في العبّ منه في كثير من الحالات.

ومن الطريف أن يحاول هوروڤيتز أن يوهم قارئ مقاله بأن الرسول عليه السلام قد استعاض عن الزيت بالماء نظرًا لشحته في الجزيرة العربية، وكأن الزيت كان يجري فيها أنهارًا! وكأن أهل فلسطين (حيث كان اليهود والنصارى الأوائل يعيشون) لم يكونوا يحتاجون إلى الماء! وكأن الزيت كان شحيحًا في الأرض المقدسة! ثم ماذا يقول ذلك المستشرق في اللبن؟ أكان شحيحًا أيضًا في الجزيرة العربية ولذلك ذكره القرآن الكريم بين لذات الجنة؟ لقد كان اللبن من الأطعمة التي يتناولها العربي صباح مساء(٣٥)، إذ كانت النوق والمعز تسرح في كل أرجاء الجزيرة.

وننتقل إلى مقال ماكدونالد عن «القَدَر» فنجد أنه يصف الآيات الواردة في

---

(٣٤) ١/ ٢٣١.

(٣٥) ويسمى ما يُشرب منه صباحًا: «صَبُوح»، ومساءً: «غَبُوق».

القرآن بشأن الجبر والاختيار بالتناقض، قائلاً إن هذا يرينا كيف أن محمداً كان واعظًا وسياسيًا لا لاهوتيًا صاحب نسق فكري في مجال العقيدة. ويضيف قائلاً إن المستشرق جريمه قد أثبت أن القول بالجبر قد سار باطراد في أخريات حياته صلى الله عليه وسلم وأن موقف المسلمين الأوائل كان هو موقف الجبر المطلق(٣٦).

وماكدونالد في إشارته هذه إلى التناقض يقصد أن في القرآن آيات مثل ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾(٣٧)، وأخرى مثل ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾(٣٨). غير أن قليلاً من التفكير المتعمق يهدينا إلى أن هذا ليس من التناقض في شيء، وأن المسألة هي مسألة النظر إلى الموضوع من زاويتيه المختلفتين. ذلك أن الله سبحانه هو خالق كل شيء وأن إرادته إرادة مطلقة لا يَندّ عنها شيء في الأرض ولا في السماء، بما في ذلك الإنسان(٣٩). فمن هنا يقال إنه سبحانه يخلق كل شيء ويريد كل شيء. ولكنه سبحانه قد شاء أيضًا أن تكون للإنسان مشيئة، وزوده بما ينفذ به هذه المشيئة من عقل وأعضاء وجوارح. ومن هذه الزاوية يقال إن الإنسان هو صاحب أفعاله وإنه مسؤول عنها ومجزيّ بها. وبعض المواقف تستلزم النظر إلى الأمر من الزاوية الأولى، وبعضها يقتضي النظر إليها من الزاوية الأخرى.

وقد أوجز الإمام محمود شلتوت رحمه الله هذه القضية بقوله: «وأما القضاء والقدر اللذان ورد في القرآن ذكرهما وجعلهما الناس مرتبطين بفعل الإنسان ومسلكه في الحياة (فليسا) سوى النظام العام الذي خلق الله عليه الكون، وربط فيه

(٣٦) ١/ ٢٠٠.

(٣٧) الكهف: ١٧.

(٣٨) التوبة: ١٠٥.

(٣٩) ومظهر هذه الإرادة الإلهية تلك القوانين التي يسير الكون بمقتضاها.

بين الأسباب والمسببات والنتائج والمقدمات، سنّة كونية دائمة لا تتخلف. وكان من بين تلك السنّة أن خلق الإنسان حرًا في أفعاله مختارًا غير مقهور ولا مجبور»(٤٠)

ويقول الشيخ محمد الغزالي إننا «نجد أن إطلاق المشيئة (الإلهية) في آية تقيده آية أخرى يُذْكَر فيها الاختيار الإنساني صريحًا، أي أن إضلال الله لشخص معناه أن هذا الشخص آثر الغي على الرشاد فأقره الله على مراده وتمم له ما يبغي لنفسه». وهو يستشهد هنا بآية تعبر عن هذا الذي يقوله، وهي قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾(٤١).

باختصار: مشيئة الله اقتضت أن تكون للإنسان مشيئة، أي أن المشيئة الإنسانية هي جزء من القوانين الكونية التي تُعَدّ مظهرًا للإرادة الإلهية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾(٤٢). ومن هذا يتبين أنه لا يوجد تناقض بين الآيات الكريمة التي تتحدث عن أعمال الإنسان ومدى مسؤوليته عنها. وقد درستُ من قَبْلُ آيات المشيئة: مشيئة الله، ومشيئة البشر، فوجدت أن الله سبحانه قد جعل للإنسان مشيئة وهو في الجنة الأولى، ولا تزال هذه المشيئة معه هنا في الدنيا، وسوف تبقى ملازمة له حتى في جنة الآخرة. وهو ما يوضح لنا إيضاحًا جليًا لا لبس فيه أن المشيئة أصيلة في تركيب الإنسان. كل ما في الأمر أنها منحة من الخالق ومنطوية في غمار مشيئته المقدسة(٤٣).

ولقد رجعت إلى أواخر ما نزل من سور القرآن، وهي «الممتحنة» و«التحريم» و«المائدة» و«التوبة»، فلم أجد فيها شيئًا يبرر ما ادعاه ماكدونالد متابعًا فيه جريمه

(٤٠) محمود شلتوت / الإسلام عقيدة وشريعة / ٤٦.

(٤١) محمد الغزالي/ عقيدة المسلم/ ١٠٩. والآية هي الآية الخامسة من سورة «الصف».

(٤٢) الإنسان/ ٣٠.

(٤٣) انظر كتابي «سورة الرعد ـ دراسة أسلوبية وأدبية» / مركز الشرق العربي/ الطائف/ ٥٧ ـ ٥٩.

من أن عقيدة الجبر هي التي سادت في أخريات حياة الرسول عليه السلام، بل على العكس يُفهم بكل وضوح من آياتها الداعية إلى الطاعة والعمل الصالح والجهاد أن الإنسان مختار في أفعاله وطاعته ومعصيته ومحاسَب على كل ذلك.

وكيف تكون عقيدة المسلمين الأوائل هي الجبرية المطلقة وهم قد تحدَّوْا مجتمعهم وقبائلهم، وشقوا لأنفسهم طريقًا مستقلاً يعلو على ظروف القهر والتعذيب العنيفة القاسية التي واجهتهم، وحاربوا العرب والفرس والروم، وفرضوا شخصيتهم على التاريخ الإنساني وغيَّروا مجراه، وجعلوا الدنيا تدين لهم وتصغى لقولهم؟ هل هذا عمل ناس يدينون بالجبر المطلق؟ إن الذين يدينون بهذه العقيدة إنما يلزمون قعور بيوتهم، ويستسلمون لحظوظهم التعيسة، ولا يفكرون في تغيير حياتهم بل حياة غيرهم. إن عقيدة الجبر لا تنتج إلا الهمم الساقطة والإرادة الشلاء والعجز المطلق. وماكدونالد وغيره من المستشرقين يعرفون هذا كله، ولكنها الحرب النفسية والرغبة في تدمير ثقتنا بأنفسنا وديننا وتاريخنا كما قلنا ونقول مرارًا.

* * *